كتاب الجمهورية ٢٦/١٠/٢٠٠٠

وكلمة ونقد

محرقة (سافونارولا)

مسرحية للأديب ميلاد حلمى صدرت عن مركز «الحضارة العربية» تدور أحداثها فى القرن الخامس عشر واسقاطاتها على واقعنا فى نهاية القرن العشرين واضحة جلية، والمسرحية عبارة عن صراع فكرى بين سافونارولا وميكافيللى الذى يدافع عن العقل والتحرر الإنسانى.

يرتبط اسم سافونارولا فى التاريخ الإنسانى بداية بالثورة على الهرطقات الدينية وممارسات الكنيسة فى عصور الظلام وتمرده على امتيازاتها وفساد باباواتها، ثم باستغلاله جهل العامة واتجاهه لنفس الشعوذة وادعائه للنبوة واقحامه بالدين فى عالم السياسة.

أما ميكافيللى ـ معاصر سافونارولا ـ وان كان معروفا بمقولته الشهيرة (الغاية تبرر الوسيلة) إلا ان المسرحية تلقى ضوءا على أفكاره الإنسانية الرحبة فنتعرف عليه مدافعا عن الأفكار الجمهورية وقدرة الإنسان على حكم نفسه وحاملا لكل آمال الإنسانية فى الحرية والعدالة.

وإن كان سافونارولا لم يلتق بمعاصره ميكيافيللى فى إيطاليا القرن الخامس عشر، فإن الصراع بينهما فى الفكر الإنسانى أمر محتوم، فتمرد سافونارولا على الهرطقة الدينية كان أملا من آمال ميكيافيللى، ومناداة سافونارولا بالجمهورية كان حلما من أحلامه، ثم نجزم هنا ان اتجاه سافونارولا للشعوذة الدينية كان صدمة له. كيف لا وهو يرى الجماهير تسير وراءه وتدعوه بالنبى! كيف لا وهو يسمعه ينادى بمملكة المسيح على الأرض! كيف لا وهو يراه يتحالف مع الأجنبى لتقسيم إيطاليا التى كان توحيدها حلما من أحلامه!!!

ويبقى ميكافيللى ممثلا للمثقف الضائع بين الملك والولاة والكهنة، كل منهم يحاول استغلال الدين وجهل العامة للوصول إلى أهدافه. يظل وحده بعقله الشقى يحاول تحليل ما يدور حوله، فحين يجد الملك والعامة تشدد سافونارولا وقسوته على نفسه مظهرا من مظاهر الإيمان والرهبنة يقول هو للملك لوران العظيم :

(أسرار الإيمان أكشفها لك أنا
وإن كان القدماء قد كشفوها من قبلنا
راهبك ارتمى فى عالم الإيمان
بعد ان لفظته أحضان الشيطان
وقرر الزواج من الكنيسة
بعد أن صدته امرأة جميلة
لو قبلته (لودوميا) فى شبابه
لما هجر العالم ناقما على لذاته
لو قبلته ولو مرة
لوجد فى أحضانها الجنة).

وأحداث المسرحية المعقدة وتحالفاتها المتشابكة تعكس بشكل واضح تحالف الكهنوتية مع الملكية لابقاء الشعب فى دائرة الجهل والفقر والمرض. فالكهنوتية تعمل جاهدة لوأد كل محاولة معرفة، تصدر التحريم الكنسى لمن يعارض تعاليمها، تحرق من يحاول التفكير، مجرد التفكير، فالتفكير وحده جريمة، بالطبع.. فهو القادر على اخراج الشعوب من حالة التنويم ـ مسح المخ ـ السائدة.

أما الملكية فهى تحكم بالحق الالهى المزعوم، تقتسم المغانم مع العسكرية الغاشمة التى لا تعترف إلا بمصالحها.

فهل يصدق أحد ان بيننا اليوم فى بداية القرن الواحد والعشرين من يطالب بما كان يطالب به سافونارولا فى القرن الخامس عشر؟!!!!

نعم.. كان سافونارولا يطالب بمنع المرأة من الخروج والسير فى الشارع، بتحريم الغناء والموسيقى، فالفن فسق ودعارة، كان يطالب باحراق الكتب فالكتاب كفرة زنادقة والمفكرون خونة مدسوسين، كان يطالب باقصار التعليم على الانجيل فكل عالم هو للدين هادم وحين يخرج لنا سافونارولا قائلا ان كل ذلك هى مطالب إلهية فمن كان قادرا على التصدى له؟

فكل يفسر النصوص على هوايته.

فحين يصدر البابا قرار التحريم الكنسى ضد سافونارولا يصرخ الأخير صائحا بالجماهير :

أين ذهبت عقولكم الحرة الأبية
افيقوا من كل هذه الخزعبلات
فعن طريقها تتحكم فيكم الكنيسة كالحيوانات

ها هو الراهب الذى غيب عقول الجماهير يطالبهم بإعمال عقلهم حين يتعرض للخطر، لكن ميكافيللى يتصدى له ساخرا :

حين يطالب رجل الدين من محادثه إعمال عقله